الذات في مواجهة العالم : قراءة ثقافية في شعر حسين مردان

الأستاذ المساعد الدكتور
حسن عبد عودة الخاقاني
جامعة الكوفة - كلية الآداب

الذات في مواجهة العالم : قراءة ثقافية في شعر حسين مردان

الأستاذ المساعد الدكتور
حسن عبد عودة الخاقاني
جامعة الكوفة - كلية الآداب

المقدمة

أنا دكتاتورالأدب
أنا حسين مردان

تلازم بعضَ الشعراء خصلةٌ ما ترتكز في أذهان الناس ولا تكاد تفارقهم فما أن يذكر إسم الشاعر حتى ينصرف الذهن إلى ما يلازمه لا إليه هو،أو إلى إبداعه الفني في مسيرته الطويلة ، ومن هؤلاء يأتي حسين مردان ١٩٢٧ -١٩٧٢ م في العصر الحديث لتكون بدايته الجامحة التي إنطلق فيها هي الخصلة الملازمة التي تحجب بقية خصال مسيرته وما فيها من تنوع في مستويات الإبداع ومجالاته .

كان حسين مردان يبحث عن سمة للتميز في مجتمع أدبي شديد التنافس والحساسية فساقه قدره إلى وخز الذائقة الأدبية القارة بجرأته في تناول بعض المحرمات التقليدية وكان نشره لديواني"قصائد عارية" و"اللحن الأسود" في سنتين تباعاً هما ١٩٤٩ و ١٩٥٠ كافياً ليكون الشاعر الرجيم في الأدب العربي الحديث ، وهكذا إقترن ذكره بذكر تلك الجرأة ، وأصبح شاعر الجنس الذي لا يحسن الكتابة في غيره من غير أن يلتفت الدارسون إلى أنه لم يكن إلّا كاشفاً عن وجه الرذيلة القبيح المتبرقع ببرقع فضيلة مهلهلة زيفاً وبهتانا .

ولا يمكن أن يكون إنجازالمبدع الحقيقي محصوراً في مجال محدد ، فالطاقات الأصيلة تجد لنفسها المجالات التي تستوعب قدراتها وما تفيض به من مواهب ، لذا لم يكن في وسع حسين مردان نفسه أن يحصر نفسه وطاقاتها الكبيرة في مجال واحد لم يكن في الحقيقة سوى تعبير عن مرحلة واحدة من حياته الصاخبة ، ولم يكن سوى مفتاح جريء للولوج في عالم كثيف التعقيد ، ولم يكن إلّا منفذاً

واحداً للذات التي تريد التعبير عن طاقاتها الفائضة بمختلف الوسائل والإتجاهات.

ينطلق هذا البحث من هذا الإفتراض ، وهو:انّ حسين مردان لم يكن شاعر الجنس حسب – كما شاع عنه وعرف به- بل هو أديب ، شاعر مبدع خاض في مختلف مجالات الإبداع التي تشهد له بالمكانة والتفوق والجدارة .

أمّا الفرض الآخر الذي كان المرتكز الأساس لهذا البحث فهو إن حسين مردان كان مدفوعاً بحاجات ذات متضخمة تسعى إلى إثبات الوجود وتحقيق الإشباع الكامل الذي يرضي هذه الذات الطامحة ويشعرها بالراحة من عناء المكابدة ، ولذلك لابد لها من البحث عن منافذ مختلفة لتنشر فيها ما فيها من طاقات هي تحقيق لأفكار ضاغطة .

عاش حسين مردان في عصر متحول فيه كثير من الحركة والقلق ، وكان فيه المثقفون يمثلون الطليعة التي تحترمها طبقات المجتمع وتثق فيها ، ويخشاها السياسيون وأصحاب المناصب ، وكانت الثقافة موئلاً متنوع المصادر يندفع إليه الشباب الصاعد بقوة وحماس ، وكانت القراءة تكاد تكون المنفذ الرئيس الذي يتطلع منه هؤلاء إلى العالم الفسيح ، ولذلك لم يكن الشاعر شاعراً حسب ، بل كان مثقفاًأولاً ، ولم يكن الحزبي داعيةً لفكرة حسب ، بل كان مثقفاًأولاً ، فتبارى هؤلاء بالثقافة وحدها وهي المزيّة الفاصلة من حيث القيمة والمكانة بين طبقات المجتمع وبين المثقفين أنفسهم ، ولذلك جاءت هذه القراءة لتستطلع المكونات الثقافية التي كان لها اثر في تكوين شخصية حسين مردان الانسانية والشعرية.

إنّ حسين مردان هو مثقف بما لهذه الكلمة من دلالة ، قرأ كتب الأدب في عصوره المختلفة ، وهجرها إلى الفلسفة ليُلمَّ بها إلماماً واسعاً ، وألمَّ بما يجاور الفلسفة من علوم كعلم النفس ، وظل يطالع الكتب الحديثة ويكتب عنها العرض

المركز ، ولنا في مقالاته التي دأب على نشرها في أهم الصحف لما يزيد على ربع قرن خير دليل على ما ندَّعي .

ولم يقصر نشاطه على الشعر والمقالة بل كتب القصة القصيرة ، ومارس النقد الأدبي متحدياً كبار شعراء العصر كالجواهري والبياتي ، ونشر في الخمسينات كتاباًهو "مقالات في النقد الأدبي" – نشرت عنه بحثاً – فهو من رواد النقد في العراق ، وهو من رواد قصيدة النثر في الأدب العربي الحديث إذ كتب ما كان يسميه (النثر المركز) ونشره في الصحف وفي دواوينه الشعرية ، وهو في كل ذلك جريء القلب واللسان ، له أسلوبه الفني البديع الذي لا يخلو من التعبير عن روح كبيرة واثقة ، طريفة ، تميل إلى المفارقة المؤثّرة .

لذا جاء هذا البحث لينظر إلى الزاوية التي لم تنل حقّها من الدراسة في أدب حسين مردان ، فلم يلتفت البحث إلى ماشاع عنه ، وإنّما إنطلق من رؤية جديدة هي رؤية الذات المتضخِّمة ، المتخمة بالإبداع وهي تريد الإنفجار فوجدت أمامها مجالات محددة إنقسمت بين العالم أو الوجود ، وموضوعة الفقر والجوع ، وشدة الإحساس بالموت .. وهذه المجالات ظهرت في خطابشعري متميز بمجموعة من السمات الفارقة ، ولم أشأ التمييز بين أنماط شعره المختلفة بل إعتمدت مبدأ الشعرية حسب ، ثم وقف البحث عند تحول هذا الخطاب الشعري لأسباب تاريخية فمال إلى الهدوء والإمتداد بعد أن لامس اليأسُ شغافَه .

إنّ البيئة الثقافية والتربوية القلقة التي إرتكزت إليها تلك الذات المتضخمة كانت من العوامل الفعالة في نشاطها فيما بعد ، ولذلك بدأ البحث من هذه النقطة : نقطة الذات المحمَّلة بعبء موروثها التربوي والثقافي حين تجد نفسها في مواجهة عالم لم تتوقع أبداًأن يكون على هذه القسوة ، والإنحطاط في المباديء والقيم والاخلاق ، عالم تسفك فيه دماء الملايين ، عالم يبحث عن اللذّة ليصطادها فلا ترشّح له شباكُه الخرقة سوى موجةٍ من ألم دافق !

لابد لي أن أوجّه جزيل شكري إلى الأستاذ الدكتور عادل كتاب العزاوي الذي لولا جهده المخلص لما إجتمعت أعمال حسين مردان الشعرية والنثرية في جزأين ليكون هذا العمل الموفق متمِّماً لعمل أستاذنا الراحل الدكتورعلي جواد الطاهر رحمه الله في نشره بعض اعمال حسين مردان في كتاب : من يفرك الصدأ ؟

التكوين الثقافي :

شهدت الثقافة العراقية الحديثة تحوّلاتٍ فكرية إمتدت منذ مطلع القرن العشرين تقريباً وسرعان ما إنتهت إلى صراع مع جذورها القديمة بفعل مجموعة من العوامل والتيارات الفكرية الداخلية والخارجية صاحبَها تحوّل إجتماعي واضح في منهج الحياة العامة ومرجعيّاتها الفكرية والاقتصادية .

كانت الحركة الثقافية في العراق بمختلف أبعادها ترتبط إرتباطاً وثيقاً بظهور عنصر جديد هو:"المثقف الفرد"[1] الذي يواجه واقعه التقليدي بالتمرد عليه ، والسعي إلى تجاوزه ، وإحلال مفاهيم جديدة تؤسس لحياة إجتماعية وفكرية وأدبية جديدة أيضا .

حملت التيارات الفكرية الوافدة ، وما صاحبها من آثار مدمرة للحربين العالميتين إلى العراق مفاهيم جديدة تحولت إلى عقائد تستحق الإعتناق والتضحية من أجلها في رأي معتنقيها ، وهي تكاد تلتقي جميعاً عند مرتكز الحرية الفردية وما يتبعها من مشاعر بالتمرّد والضياع والغضب ، ولا سيما لدى الفلسفة الوجودية التي وجدت لها مكاناً واسعاً في نفوس الشباب الصاعد إذ (مثّلت شكلاً مشتطاً من النزعة الفردية ، فقد شددت اللهجة –وهذا فضلها – على الذاتية ، على مسؤولية الانسان ، على قلق الإختيارالإنساني)[2] الذي جعل الذات في مواجهة نفسها في مرحلة الإختيار ، وفي مواجهة العالم في مرحلة مسؤولية الإختيار.

وبهذا وجد الانسان نفسه في صراع صريح مع العالم ، والإنسان لا يمكن أن يعيش من دون صراع ، ومن دون معاناة[٣] ، ولكن العالم ليس شيئاً مادياً يمكن الوثوق به ، بل هو تركيب تصنعه الذات لنفسها بالطريقة التي تستجيب بها لطبيعة الإدراك ألإنساني الذي لا يعني الاندماج في العالم بقدر ما يعني إعادة تركيب العالم ، أو تكييفه واستيعابه ضمن طاقات العقل القادرة على ذلك[٤] بحيث تكون الذات هي مركز العالم ، وكل ما في الكون لا يتمتع بأي وجود حقيقي إلّا بالقياس إلى الذّات التي هي الشيء الحقيقي الأوحد [٥] ، (ومن ثمَّ كان العالم الذي يعيش فيه البشر ليس إلّا تأويلات وتأويلات مضادّة ، أمّا العالم في حد ذاته كحقائق متعالية على التاريخ ، مطلقة ونهائية ، فلا وجود له ، وهذا يعني انّ الحقائق والأفكار والمفاهيم والقيم تتماهى بالجسد ولا توجد إلّا وهي متجسدة في ممارسات ، وفي إرادات للقوة)[٦] يتجلى التعبير عنها في صورة خطابات متضادة أيضا .

الذات وحاجتها إلى الآخر :

لا يمكن للذات أن تتّجه إلى الداخل منطويةً على نفسها من دون أن يكون لها إتصال بالآخر الذي يمثل محيطها الذي تتحقّق فيه (فالوعي بالذات لا يستيقن من نفسه إلّا بوساطة تجاوز ذلك الآخر الذي يمثّل حياةً مستقلةً إستقلالاً ذاتياً)[٧] ولا شكّ في أنّ الذات تواجه الآخر بطريقة إنفعالية مصدرها الشعور (الذي يضع نفسه في أفعال السلوك ، وهكذا فإن الأنفعال في أصله تدهور تلقائي للشعور إزاء العالم ، وهو تدهور يحياه الشعور ، فما يعجز الشعور عن تحمله بطريقة معينة يحاول أن يدركَه بطريقة أخرى)[٨] و ، (فليس الموجود البشري في صميمه سوى نزوع وشروع ، شهوة وتمثل تعويضاً منتجاً غير معترف ، أو مستسلم لحقيقة العجزعن تمثّل العالم كما هرغبة ، ميل وفعل ، وهو لهذا لا يمكن أن يحقق ذاته إلّا بخروجه عن ذاته ، أو هو بدلاً من أن يجد نفسه أعجز ما يكون عن أن يظل

قابعاً في ذاته ، لأنّنا – كما يقول بول فاليري- محبوسون خارج ذواتنا ! وربما كان سر الموجود البشري أنه دائما حيث لا يوجد أكثر ممّا هو كائن حيث يوجد)[٩] ولذلك ينازعه هذا النزوع الدائم نحو الآخر بصوره المختلفة ، فقد يكون إنساناً آخر ، أو الطبيعة ، أو الأحلام ، أو الغيب ، أو الإله ، أو أيّ شيء آخر تلتصق به الذات أو تتحد أو تتصارع معه لتحقق وجودها المبتغى .

حسين مردان ومشكلة الذات :

عاش حسين مردان طفولة بائسة مشرّدة فيها من القسوة والأذى ما جعله ينقم على ذاته وعلى عالمه فهو يقول عن نفسه : (كنت ثالثَ طفل لأمٍّ قاسيةٍ جامدة العاطفة ، وأبٍ سكّير ضعيف الإرادة رقيق الشعورإلى حد الإفراط ، فجئتُ مزيجاً من الضعف والقوة ، وخليطاً عجيباً من الرقة والقسوة ، وقد حاولت كثيراً أن أوفّق بين متناقضاتي فلم أستطع لذا كنت "مشكلة العائلة " التي لا تحل ، حتى قررت والدتي بالإتفاق مع شقيقتي الكبرى طردي من البيت باعتبار أنّ ذلك هو العلاج الوحيد لكي أصبح رجلاً قوياً في المستقبل ، ومنذ ذلك اليوم بدأ ينمو بأعماقي ذلك "المسخ البشع " الذي تمخض عن حسين مردان .[١٠]،ويبين في موقف آخر نمط طفولته فيقول : (وتذكر أمّي أنّي كنتُ في منتهى الوقاحة وإني كنت سريع الغضب وأحب التشرّد في الأزقّة ، ولم أكن أحب اللعب إلّا مع البنات ومع ذلك لم تحبّني إمرأة طيلة حياتي)[١١] ولا ندري إن كان يتحدث عن حقيقة أم عن رغبة ما.

أمّا عن الجانب الثقافي في مرحلة التكوين والإطّلاع فيتحدث حسين مردان عن نفسه فيقول : (بدأتُ أنظم الشعر في العاشرة من عمري وقد نشرت أول قصيدة في الصحف سنة ١٩٤٠ في جريدة صوت الشعب ثم تعشقت الفلسفة ، فتركت مطالعة الكتب الأدبية وهجرت الشعر ، ولّما عدت إلى قرض الشعر

وجدت أنّ حسين مردان القديم قد مات وحلّ محله شاعر فيلسوف عملاق لا يؤمن بما يؤمن به الناس)[١٢].

وقد ترك إنغماس حسين مردان وإستغراقه في الفلسفة أثراً عميقاً ليس في تكوينه النفسي والثقافي حسب وإنّما في هيأته ومنظره العام أمام الناس ، وهو يصف هذه المرحلة بقوله : (وقد طال انزوائي ولم أعد أهتم بما يدور حولي فطال شَعرُ رأسي إلى درجة تجذب النظر فشاع في البلدة أنّ حسين مردان قد جُنّ ، ولطالما سمعت كلمة " مجنون " تنطلق من أفواه الناس عندما أمرّ بهم)[١٣] .

وقد جعله كل هذا التناقض في روافد تكوينه متناقضاً أيضاً إزاء ذاته ، فهو من جهة يشعر بالتعالي والثقة التي تصل حد الغرور فيصرّح بتحدٍّ : (ولقد قلتُ وسأقول دائماً إنّي أشعَرُ شعراء الشرق في هذا النوع من الشعر الصريح ، أمّا باقي أنواع الشعر فأنا لا اؤمن بوجودها مطلقا)[١٤]، ومن جهة يكره هذه الذات القلقة المتناقضة فيقول : (إن كراهيتي لذاتي لم تترك شيئاً للحقد على الآخرين)[١٥].

ولم تنقطع قراءة حسين مردان وتعمقه في الفلسفة وما يتصل بها وهذا ما يبدو واضحا من مقالاته الكثيرة التي كان ينشرها في الصحف وهي تناقش قضايا فلسفية عميقة ، وتشيرإلى الكتب ، والأعلام ، مثلما يبحث في بعض مصطلحات علم النفس وأمراضه [١٦] التي ربما شعر بأنه واقع تحت سطوتها .

قَدِم حسين مردان إلى بغداد ليكون أحد أشهر مشرّديها المبدعين ، فقد عاش في تنازع عنيف بين ذات أبيّة تستشعر الكبرياء والتمرّد ، وبين واقع مزرٍ لا يسمح بتحقيق أدنى أمانيها وهو لقمةُ عيش سائغة ، وفراش تأوي إليه كبقية خلق الله [١٧].

كان حسين مردان يمضي أغلبَ وقته في مقاهي بغداد التي كانت نوادي أدبية تخرّج فيها معظم مبدعي العراق المشهورين ، وكان مشهوراً بنقاشه الحاد المتعالي ، وهو يعتقد في نفسه سطوة وتفوقاً على الآخرين لذا يقول مصرحاً : (أنا دكتاتور

الحركة الأدبية ، وباستطاعتي أن أهيل الجبل على أيّ شاعر ، كما باستطاعتي أن أضعه فوق ناطحة السحاب)[١٨]

وقد يكون هذا إمتداداً لطفولة إنطوائية يزيدها قلقاً ما عاناه في صغره من غياب الإستقرار بحكم وظيفة أبيه شرطياً كثيراً ما ينقل بين المدن المتباعدة [١٩]، وما لمسه من حاجة وعسر وفقر دفعته جميعا إلى التمرد ورفض الإستسلام لواقعه القاسي .

أمّا من الناحية الفنية فكان كبرياؤه يدفعه إلى الشعور بأنه أشعر الشعراء وهو القيّم عليهم جميعاً فهو الذي يحكم على أيّة قصيدة ، ولذلك أشتهر عنه قوله : أنا قوي جدا .. أنا حسين مردان ! وهو يعتقد أن لا أحد قادرعلى فهمه لأنه الأرفع إذ يقول :

أنا في ذاتي سر مغلق لا أرى في الناس
من يفهمني .. مثلما جئت فسوف أذهب
لغزاً يحتويه الغموض والكتمان ..

فمذ يئس من الكون والناس إلتفت إلى نفسه منطوياً عليها ، مخاطباً إيّاها ، ولعل أحداً لم يسبقه إلى مثل هذا الإهداء الغريب الذي أهدى به أول دواوينه إلى نفسه بخطاب متضخم :

لم أحب شيئاً مثلما أحببت نفسي[٢٠]
فإلى المارد الجبار الملتفّ بثياب الضباب
إلى الشاعر الثائر والمفكر الحر
إلى .. حسين مردان
أرفع هذه الصرخات التي إنبعثت
من عروقه في لحظات هائلة
من حياته الرهيبة
ح. مردان

بغداد ٢٦ – ١١ – ١٩٤٩

ولا شك في أن التشرد ، والتهرب من الإنتظام في سلك النظام الإجتماعي الضابط يتيح للذات المتضخمة مزيداً من الشعور بالحرية الفردية المنطلقة ، وقد غذاها طاريء زماني كاسح هو شيوع الماركسية الثورية المنتشية بانتصاراتها في الحرب العالمية الثانية ، والفلسفة الوجودية[٢١] القادمة من باريس مقرونة بقوة حضور زعيمها ونجمها الأول جان بول سارتر (١٩٠٥ – ١٩٨٠) وإعتمادها الحرية التي ساندها أدب العبث واللّا معقول ، ولو شئنا أن نلقي نظرة عجلى على بواكير[٢٢] شعر حسين مردان وموضوعاته ولا سيما في ديوانيه" قصائد عارية" و"اللحن الأسود" لما وجدناه يخرج عن هذا الدافع الذي كان له الأثر الأول فيه وفي نتاجه المبكر .

إنّ ذاتا تعاني مثل هذا التضخم والقلق ، وتجد نفسها على حافة إنفجار رهيب لابد لها من أن تبحث عن منافذ تفرغ فيها شحنتها الخانقة ، ولذلك إتجه حسين مردان إلى مجموعة من مجالات الحياة يتوهم فيها عدواً مفترضاً يصليه بصواعقه المحرقة ، ويمكن أن نحدد هذه المجالات بالآتي :

- الوجود أو العالم :وددت لو أستطيع في لحظة تحطيم هذا العالم الفاني نعني بالعالم ما يقع خارج الذات ، أو ما تعتقد أنها بمواجهته ، وقد كان لحسين مردان موقف واضح في رفض هذا العالم ومهاجمته بشدة وعنف يبدو وكأنه لا يعرف المهادنة ، فمنذ أول بيت في أول قصيدة من ديوانه الأول "قصائد عارية" يقول :

ضقتُ بالأرض والسماء فثوري يا براكين نقمتي وشروري

فهو يقدم في هذا البيت ، والقصيدة أيضا ، مفتاحاًمهماً لدراسة شعره في هذا الديوان في الأقل ، وهو النقمة على الحياة وكرهه العيشَ فيها ، بل كرهه حتى نفسه المكرهة على العيش في هذا الوجود [٢٣]:

ما حياتي ولم أجد في حياتي غير حزن يذيب صُمّ الصخور
كرهت نفسي الوجودَ وملّتْ عِشرة الأرض في ظلال الفجور
لعنة جئتُ للحياة وأمضي مثلما جئتُ لعنةً للقبور
يا ليالي باطلٌ كلُّ شيءٍ ليس غير الفراغ خلف القشور

ويمكن أن نتلمس بوضوح تكرارَ كلمة الوجود في موقف حسين مردان الرافض للعالم بكل مافيه ، وهذا يدل على تأثره في تلك الحقبة – مع دلائل أخرى – بالفلسفة الوجودية التي شاعت في زمانه ، فهو يقول(٢٤) :

كلُّ ما في الوجود شيء قبيح وقبيحٌ حبّي لهذا الوجود

أو قوله (٢٥):

وتخدَّري بالموبِقاتِ فليْسَ في هذا الوجود سوى الشقاء المؤلم

أو قوله (٢٦):

كلُّ ما في الكون شيء تافه
كل ما في الكون لا يعجبني
أنا في ذاتي سر مغلق
لا أرى في الناس من يفهمني
أنا شيء ! أنا لا شيء ! أنا
صرخة الأرض بناي الزمن
بعتُ للشيطان روحي فالذي
لم يرَ الشيطانَ لا يعرفني
مات في أعماقي الله فلا
أعرف الخير ولا يعرفني

ويبدو هنا بوضوح تناغم حسين مردان مع الفلسفة الألمانية فهو يشير إلى "فاوست" الذي باع روحه للشيطان ، ويشير إلى مقولة "نيتشه" بموت الإله .

أما القصيدة التي ختم بها ديوانه (اللحن الاسود) فهي القصيدة التي تمثل نزعته الوجودية بوضوح شديد ، ولكنها في الوقت نفسه تمثل ختاماً لمرحلة مهمة من حياة حسين مردان ورؤيته الثقافية [٢٧]

أدوسُ على الوجود وساكنيه ... وأبصقُ فوق سكان القبورِ
وأقسم لو رأيتُ ..... يوماً ... صرختُ بوجهه بيدي مصيري
أساطير ملفّقة ودنيا ... يكبّلها الزّنا أبد العصور
دعيني أعبد الشيطانَ وحدي ... وأعبث في الحياة بلا ضمير
فلستُ بمدّعٍ شرفاً كبيراً ... إذا فاخرت بالشرف الكبير
فأنتِ وكلّ أهل الأرض طرّا ... جراثيم تعيش على البثور

فهو يتجه إلى صب غضبه على الناس جميعا [٢٨]:

إنّي لأبصرُ طيفَ الإثم منتصبا ... في كل منعطف تعنو له الناسُ
فلتفعلوا بي ما شئتم فكلّكمو ... يا ساكني الكوكب المنحوس

قد تهدأ النبرة في خطاب حسين مردان الشعري تجاه العالم ، ولكن الموقف يظل كما هو فهو يرفض العالم الحديث الذي تحول إلى تَنّور مشتعل [٢٩] ، وهو يقر بعجزه عن المواجهة فإنّه يجد الحل في العزلة [٣٠]:

سأبتعد عن هذا العالم
فَمَدُّ البؤسِ في ارتفاع
وإنّ الزمن الذي أنتج لنا
نيرون وجنكيز خان
أكثرُ رفعة من العصر الذي
أوجد لنا هتلر !
إنّ عالَنا يشتعل !
وإنّ الأيدي الخبيثة
لا تنفك تقذف بالحطب داخل

التنور
ولستُ مضطرّا إلى مصافحة
عالم كهذا
مادام فيه من يحصد حدائق
الورد بمناجل البارود

يكشف حسين مردان في مقطع آخر عن الجانب الآخر من هذا العالم المادي المشتعل ، إنّه عالم الخديعة بالإغراء الكاذب الذي جعل ممثلة الإغراء الأمريكية مارلين مونرو(ولدت في كاليفورنيا ١٩٢٦ وماتت سنة ١٩٦٢ وقيل إنّها انتحرت) رمزاً لفساده :

كيف لا أضيق بهذا العالم
العالم الذي يلتفُّ حول فخذين
عالم (مارلين مونرو)
نصفُه من المراهقين !
والنصفُ الآخر لا يُجيدُ غيرَ
صناعة الرصاص
إنّه لعالم مخيف
فعلى كل رأسٍ شبحٌ
غرفة مظلمة
وليس باستطاعة إنسانٍ الإختيار

الجوع :

كان جوع حسين مردان مركّباً ، فهو في جوع دائم إلى الطعام ، ولكنّه كان يشعر بالحاجة إلى أشياء كثيرة أيضاً ، إذ كان يشعر بالوحدة المرعبة ، ويهفو إلى

حرية لا تحد ، ويصطدم بحقيقة الموت المخيف فهو قلق متحدٍّ مرة ، ومستكين مستسلم مرة.

وقد رافقه الجوع في طفولته وشبابه مذ عاش فقيرا متأبّياً ، ويكاد يبدو جليّاً شيوع ألفاظ متعلقات أجوع في خطابه الشعري كالتشهّي والظمأ والكأس والشراب والرضاعة والفم والأطعمة والفواكه ... وإن جاء استعمالها في مجالات دلالية أخرى قد يطغى عليها الجنس إلا انّها تشير من جانبها الآخر إلى حضورها بقوة في وجدان الشاعر بحيث تتسرب إلى خطابه بغفلة من الوعي أو الشعور فهي فاعلة في حمل دلالتها وإنْ غابت عن ذهن الشاعر ووعيه أثناء الكتابة وهو ما يظهر لديه إذ يكنّي عن الرغبة العارمة بالجوع كما في قصيدة (ثغر وجوع)[٣١] وهو يعي ذلك تماما في تقديمه للقصيدة : (إنه نوع غريب من الجوع هذا الذي نحسّه نحو تلك القطعة الصغيرة من اللحم المصبوغ)ومنها يقول :

فكلّي حنين
وجوع دفين
يهزّ العَصَب
لشرب الرّحيق
وعضّ العَقيق
وعصر الذهب

ويبدو هذا المعنى ، وهذه الطريقة في الاستعمال على درجة من الشيوع في شعره المعبر عن حاجته إلى الجنس الآخر [٣٢] بما لا يبقي حاجة للوقوف عنده في الدراسة .

أمّا الجوع بمعناه الحقيقي فهو مظهر من مظاهر شعر حسين مردان لأسباب كثيرة منها : معاناته الشخصية مع الجوع والفقر ، وموقفه السياسي الرافض لتسط فئة قليلة مستأثرة بحقوق الشعب ، وموقفه الإجتماعي والفكري العام المبني على

حب الحرية ورفض الظلم أيّاً كان مصدره ، ومن كل هذا يبدو صريحا في معاداة الجوع ومن يقف وراءَه من رموز التسلط السياسي والإجتماعي والإقتصادي .

يقدم حسين مردان في هذا السبيل صوراً رمزية لشخصيات تمثّل واقعها الإجتماعي خير تمثيل ومنها الصورة التقليدية للفلّاح العراقي الذي يكدُّ ويشقى لينعم الآخرون عبثاً بثمر جهده الذي يُحرم منه ، ونجد ذلك في قصيدة (الناطور والشتاء)[٣٣] التي تقدم مقطعاً من حياة فلّاح شقي يفكر في ابنته العمياء وزوجه المريضة من جانب ، وفي أولائك الذين يتنعمون بلذائذ الحياة من ثمر جهده :

ويَدبُّ يسحبُ جسمَه عبرَ الحقول
والعنكبوتُ يدورُ في رأسه الحليق
فتستفيقُ الذكريات
ويعودُ يحلمُ من جديد
بجبين زوجته المريض
وبرأس مغزلها الطويل
يحك أطراف الحصير

❖ ❖ ❖

وتلوح أضواء المدينة من بعيد
فيكاد يلمس في يديه
خفقَ الكؤوس على شفاه المترفين

تنتهي القصيدة على وقع غضب الفلّاح وإيمانه بالفجر القادم حتماً ، ولكنّ صورة الفقير" حنتوش" [٣٤] تقدم أنموجاً آخر أكثر قتامةً للفقيرالذي لا يجد إلّا السؤال وذلّ السؤال :

لم يجد في الحياة شيئاً جديداً
إيهِ "حنتوش" أيّ رمز عجيب

أنت للبؤس والعذاب المقيم
كلّنا في العراق مثلك نشكو
وطأةَ الويل في ظلام بهيم

يسعى حسين مردان إلى الإفادة من المفارقة حين يستعمل الطفولةَ رمزاً للفقر ، فوطأة الفقر الثقيلة قد يمكن قبولها مع الكبار بما لديهم من قوة وحيلة ، ولكن الصغير المعدم لا يستطيع تحمل تلك المشقة ، ونجد ذلك في أنموذج (الشحّاذ الصغير)[٣٥] الذي مات أبوه ، وأمّه العجوز هي على طريق الموت أيضا :

هذا الصغير
تلفُّ عظامَه مزَقُ الثياب
في رأسه شَفَةٌ تدور
شفة لإمرأةٍ عجوز
أسنانها منذ الصّباح ،
تعيش في حلم مخيف
حلم اللقاء مع الرّغيف

تنتهي القصيدة بالأمل والتحدي وهو الذي سنلقاه لدى الأطفال في قصيدة (الشمس في الجدار)[٣٦]:

شفاهُنا تصرخُ باكتئاب
أقبلتَ يا عذاب
لكنّنا سنحفر في الظلام
سنحفر في الظلام
وعندما يستيقظ الصغار
ويبصرون الشمسَ في الجدار
ينطلق النشيد
قد نوّر الصباح

صباحنا الجديد

إنّ مشكلة الجوع لدى حسين مردان من المشكلات الأساسية في حياته وفي أدبه ، ولذلك لم يكتفِ بكل الذي كتبه عن الجوع والفقر ظاهرةً إجتماعيةً مركبة ، بل خصّها بديوان من دواوينه سماه (الربيع والجوع)[٣٧] عرض فيه نماذج إجتماعية مختلفة منها : الفلّاح ، والغريب ، مركّزاً على الطفولة التي خصّها بأكثر من قصيدة منها "الربيع والجوع" التي تبيّن أنواع الجوع التي يستشعرها في نفسه :

أنا لا أبحثُ عن الدفْء
أنا لا أبحث عن الحرير
أنا لا أبحث عن الحب
لأنّي أعرف الرّبيع
أعرف الجوع !
الجوع الذي يلتصق بنفسي
والجوع الذي يعيش في معدتي
والجوع الذي يدور في رأسي
أعرف كل أنواع الجوع
أمّا الربيع
أمّا العطر والورد والبخور
فسأعمل ليعرفَها أبنائي

هكذا يتحول خطاب حسين مردان الشعري عندما يكون مفعماً بالأمل ، ولا سيّما بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ إذ يجد في هذه الثورة تغييراً جذرياً في حياة الناس وفي آمالهم ، ولذلك تعلو نبرة الأمل والتفاؤل في شعره فيخرج في ذلك ديواناً سمّاه (هلاهل نحو الشمس)[٣٨] ويبدو أنه قد وجد في شخص الزعيم عبد الكريم قاسم ذلك الأمل المرتجى مجسداً فمدحه ، ويمكن الرجوع بهذا الخطاب المتفائل ،

المؤمن بالبطل الى قصيدة (رجل الضباب) [٣٩] وقد قال في مقدمتها (نشرت هذه القصيدة في عام ١٩٥٢ في كراس خاص وهي نموذج للشعر الثوري الذي كنّا نتحدى به حكام العهد المباد وسيجد القاريء من خلال أبياتها وصفاً للثورة التي حدثت بعد ذلك بأعوام طويلة ، أعني ثورة ١٤ تموز الجبارة) ومنها يقول :

أنّى التفتُّ أرى بوادر ثورة
نكباء بورِكَ هولُها لو تهدر
في كلّ عينٍ رغبةٌ مسعورة
للملتقى وبكلّ كفّ خنجر
وبكلّ صدر أسمر متوثّب
عارٍ حنينٌ للصراع يدمّر
وبكلّ ثغرٍ ذابل أنشودة
حمراء تنضح بالدماء وتقطر
لكنّنا نشكو فراغَ زعامة
شمّاء تهزأ بالحديد وتسخر

الموت :

هو الطرف الآخر في ثنائية أزلية هي الموت والحياة، لكن غالباً ما يغيب الشعورُ به إلّا في لحظات الخطر ، أو الكبر حين يتجه الإنسان إلى نفسه شاعراً بقرب نهايته ، ولكنّ هذا لا ينطبق على حسين مردان الذي بدأ إحساسه بالموت[٤٠] ، والتعبير عنه في العشرينات من عمره فكان إحساسه به قوياً (فهو الشبح الذي ينتظره في كل لحظة)[٤١] وقد تجلّى موقفه إزاء الموت باتجاهين :

الأول : هو تشبثه بالحياة ومصارعة فكرة الموت ليزيد من الإغراق في الحياة وهو ما نراه واضحا من إقباله على الحياة المادية بما فيها من متع زائلة ، وإنْ كان هذا لا يمثل إلّا مهرباً مؤقتاً له إذ كانت فكرة الموت تطلّ عليه في أية لحظة من دون

سابق إنذار حتى وإن كان مستغرقا في النشوة حتى الأعماق ، لذا يمكن أن تبزغ فكرة الموت في قصائده فجأة وهي تتحدث عن مغامرة ما (ولذلك كان تشبّثه بالحياة ناتجاً من فهمه للدوافع الآنية للصراع الأزلي نحو البقاء ، ففكرة الموت كانت تؤرّقه وتؤلمه وهو يحاول أن يتناسى من خلال تشبثه بالقوة في الحياة)[٤٢] ولذلك يقول : (أنا كالقط البري لا يمرض الا في اليوم الذي يموت فيه)[٤٣] ولكنّه لا يلبث أن يتخلى عن هذا العناد والتمسك بالحياة حين يكتشف الحقيقة الأبدية ، حقيقة الموت الذي لا مفرّ منه : (لم أشعر بالحزن العميق إلّا بعد أن عرفتُ أنّ الموت أحد القوانين الطبيعية التي لا يمكن نقضها)[٤٤] لذا يميل نحو الليونة والإستسلام فيقول :

أنا أعرف نهايتي
فغداً سأموتُ بسكون
كما تموت الأشجار القديمة في أعماق الغابات
سأموت إلى الأبد

الثاني : أمّا الثاني فهو على شقّين هما : هيمنة مفردة الموت وأخواتها في الحقل الدلالي على خطاب حسين مردان الشعري المبكر خاصة ، والشق الثاني هو إستعمال الصورة الدالة على الموت ولا سيما مع المرأة التي غادرها زمن الشباب .

وفي الشق الأول نجد قصيدته (النشيد الحقير)[٤٥] التي أهداها إلى اصدقاء الحانة فرسان الضباب قد استجمعت علامات الذبول والموت :

الشباب الشباب لم يبقَ منه ... غير ذكرى غرامي المسعورِ
وبقايا معذّب أكلتْه ... جائعات الشفاه في الماخور
وخطوط لهيكل يترامى ... تحت أقدامه عويل القبور
وثغور صفر تموت عليها ... قبلات لشاعر مغرور

هكـذا قـد خلقـت : وحشـاً حقـيراً فتغنيـــت بالنشـــيد الحقـــير
وتبعـــتُ الشـــيطانَ في كـــلّ درب حـــاملاً فـــوق راحـــتي مصـــيري
فـانثري يـا مخالـب المـوت عمـري فـــوق أشـــلاء عـــالم مـــدمور

ونجد في قصيدة (عبر)[٤٦]رؤية واضحة لما سيؤول إليه حسين مردان وهـو مـا زال في زهو الشباب :

ســأظل عبــدَ عــواطفي ولذائــذي ما دمتُ في كنف الشباب الأزهرِ
فإذا انقضى زمن الشباب ولم تعد ذكـــراه إلّـــا كالخيـــال العـــابرِ
ودخلت في ليل الكهولة وانقضت أيـــام لهـــوي في الزمـــان الغـــابر
وبـدت لـي الـدنيا سـعيراً مظلمـا مـا بـين أشـباح الفنـاء السـاخر
وذوت أزاهـــير المنـــى في روضـــها وحطمتُ أقلامي وعفْتُ دفاتري
وقـبرتُ بـين جـوانحي قلبـاً بـه عبثَـتْ أعاصـير الشـقاء الجـائر
أطلقتُ روحي من سجون عذابها تشـدو بأغنيـة الجحـيم السـاعر

وأمّا تكرار مفردات الموت وما لازمها فكثير مبثوث في شعره ، ويكثر في تشبيهاته كقوله [٤٧] :

لا تذكري ما فات الحب طفل مات

أو قوله:

فيموت الهوى ومـا زال طفـلا فـوق جفنيـه رائعـات الأغـاني

وغيرها من القصائد التي تشيع فيها هذه المفردات بوضوح[٤٨].

ولابدّ من الإلتفات هنا إلى مبدأ التكرارالذي إستعمله مردان من أجل التفصيل والتوكيد لما يراه في نفسه متراكماً من شعور بالفناء والعبث اللّا مجدي ، ويكفينا أن نقف عند قصيدة (قصة شاعر)[٤٩] التي ختم بها ديوانه الأول ومنها يقول :

أينَمـا حـطَّ نـاظراي ظـلام مرعـب المـوج لـيس فيـه أمـانُ
يتلـوّى بـه الجنـونُ رهيبـاً ويمـوج الشـقاء والحرمـان
ويمـدّ الفنـاءُ نصـلاً مخيفـاً فـوق حديـه ترقـد الأكـوان

هكـذا لَمْلـمَ الزهـور الزمـان وغفـى فـوق ذكـري النسـيان
فأنـا اليـومَ حفنـةُ مـن رمـاد خلّفتهـا الأيـام والحرمـان
نحت الخزي في جبيني سطرا مـات فيـه الضّـمير والوجـدان
فتخلّى عني الصحابُ احتقارا وجفـتْني الـديار والاوطـان
فـإذا كـلّ مـا تمنّيـت كـوم مـن تـراب ترعـى بـه الديـدان

صورة الجمال الآفل :

عرف الأدب العربي الحديث المرأة البغيّ بفعل مصدرين : الأول ثقافي يمثله الأدب الغربي الوافد وخاصة الرومانسي منه الذي حمل هذه الصورة عرْضاً لحياة واقعية ، أو تعاطفاً مع البغي الطاهرة في نفسها – كما يعتقدون – ولكن سوء النظام الأجتماعي دفعها إلى الخطيئة فكأنّها تمثل صورةً للإحتجاج على الظلم ،(وتأتي مسألة المرأة – من حيث هي مثل – في الصميم من هذا الشعور وهذه الصور ، كأن الحرمان منها يعدل الحرمان في غيرها او يزيد، وتلتقي المسألة بمسألة الموت ، لدى الخوف منه واقعا او لدى الاستيلاء عليه حقيقة او لدى تطلبه في الحياة ، او لدى العيش ابديا)[٥٠] ، .

والثاني داخلي اجتماعي تمثّل في الحياة الإجتماعية الجديدة التي بثّت مظاهر الرذيلة فانتشرت الملاهي والمواخير وبيوت البغاء في المدن الكبيرة ، ولذلك حين يتحدث حسين مردان عن هذا الصنف من النساء فإنه يتحدث عياناً وليس خيالاً ، ولكنّه في الوقت نفسه ينتج فنياً أدباً يحمل صورةً هي نتاج خطابه الشعري الخاص الذي جعل من المرأة ذات الجمال الآفل معادلا للحياة الآفلة التي فقدت رونقها وصارت إلى الموت أقرب ، ونجد أمثلة لذلك في قصائد كثيرة منها قصيدة (الراقصة)[٥١] ومنها يقول :

فتمـــردتِ تنشـــرين المنايـــا في الـــدروب الكئيبـــة الحمـــراء
تتغنين فوق جثة الطهر سكرى بنشـــيد الخنـــا ولحـــن الفنـــاء
وســـتبقين ثـــورة تتلاشـــى في مهـــاوي أعماقهـــا الأعمـــار

تشـــربين الغـــرام مـــن كـــاس فـــيعم البلـــى ويطغـــى الـــدمار
ثـــم تمســـحين حفنـــة مـــن رمـــاد في مهـــب الـــريح والإعصـــار
تفتّـــق الـــذكريات كـــلَّ ســـاعٍ ألـــفَ جـــرح في قلبـــك الغـــدار
ثـــم مـــاذا لا شـــيء غـــير بقايـــا نـــتن مســـكر ونعـــش كئيـــب
يـــرقص الـــدود حولـــه وتـــدوّي لعنـــة القـــبر في عويـــل رهيـــب

فذبول جمال المرأة ذبول للحياة ، وهو ما كان حسين مردان يحذر منه وهو في قمة نشوته إذ يقول في قصيدة (العاصية)[٥٢]:

أنـــت مســـكينة لقـــد خـــدّروها بحـــديث الخيـــال والأوهـــام
نحـــن إنْ لفّنـــا الـــردى واحتوانـــا بـــين أحضـــانه ظـــلام الرخـــام
لـــن تعـــود الحيـــاة يومـــاً إلينـــا بعـــد أن يعبـــث البلـــى بالعظـــام

أخيرا يستسلم حسين مردان لقدره ، ويقر بهزيمته إزاء المارد الجبار في صراعه الخاسر فيستشعر الموت حقيقة أبدية لا يمكن لحي الإفلات منها أبدا فيودع أصدقاءه برسالة أخيرة هي قصيدة (آخر المطاف)[٥٣] :

لقد انتهى أمد الصراع
وآن لهذا القلب التعس
أن يموت بهدوء
كلّا ليس الخوف هو
الذي يدفعني إلى الإنطواء
كلا ، أصدقائي الأعزاء ،
إنّه شيء أعمق من ذلك
شيء ربّما لا أعرفه أنا
أيضا
ولَكَم يعزّ عليَّ فراقكم
ولكنّي تعبتُ .. تعبت ،

والآن اتركوني وحدي ،
لأعرفَ نفسي
وأفهم حقيقتي
وداعاً يا أصدقائي ، وداعاً إلى الأبد

تحوّل الخطاب :

أشرنا إلى تحوّل الخطاب الشعري لدى حسين مردان في بعض المجالات ومنها الجنس الذي لم يكن في نظره سوى لذة تعقب ألماً ، وقد وفرت له جرأته في هذا الموضوع ما كان يرنو إليه من مقام متفرد في مجتمعه الثقافي إذ حقق لنفسه إندفاعها في الظهور وجذب الأنظار إليه ، ولذلك نجده قد خرج مزهواً من معركتيه في المحاكم حول ديوانيه "قصائد عارية" و"اللحن الأسود" تباعاً ، ويبدو أنه لم يشعر بحاجة في نفسه إلى الإغراق في هذا الموضوع الذي استنفده واستنفد الرغبة في الكتابة فيه ، وهذا هو شان الذوات الطامحة التي ما انْ تبلغ إحدى أمانيها حتى تزعجَها أخرى إلى مزيد من الإنتاج والحركة نحو قمة جديدة .

إنّ تغيّراً واضحاً في خطاب حسين مردان الشعري قد بدأ لديه في الحقبة التي أعقبت ديوانيه الأولين ، وهو تغيّر لا يقتصر على الموضوعات التي يفيض فيها وإنما يشمل منظومته الفكرية الجديدة التي مالت إلى المهادنة والتعقل والهدوء ومعالجة أحوال الناس والمجتمع بتُؤَدَةٍ ، وهنا تظهر نغمة التفاؤل لديه .

وإذا شئنا أن نعود إلى بدء هذه المرحلة في خطابه فسنجدها في ديوانه (أغصان الحديد)[٥٤] وفي قصيدة منه هي (رجل الضباب) التي تنبّأت بالزعيم المضحي الذي سينقذ هذا الشعب من القوى المتسلطة عليه ، وتاتي ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ لتفتح أبواب الأمل على مصراعيها أمام مردان الذي يتحول إلى داعية ، أو خطيب يهدر بالبشرى لهذا الشعب فيخرج ديوان (هلاهل نحو الشمس)[٥٥] الذي ما هو إلّا غناء تقريري مباشر للثورة وزعيمها الذي وجد فيه صورة البطل المرتجى .

ولو وقفنا عند أول قصيدة من ديوان (أغصان الحديد) وهي قصيدة (قبضة الصلب) لوجدنا أن مردان قد ودّع الزمن الماضي وتخلّص منه تماماً لذا يستعمل في مفتتح مقاطع القصيدة عبارة مكررة تدل على الماضي هي :" كنّا نعيش " فيسرد ما كان عن حال مضى ، لكنّه مقرون بالحماس وزهو انتصار :

كنّا نعيشُ في أضلاعنا النّارُ ... وتحتَ كلِّ لسانٍ يرعد الثّارُ
حتّى نزلتْ على الباغين صاعقةٌ ... فَلَمْ يَعُدْ لهم في أرضنا دار
وغرَّدتْ فوهةُ الرشّاش وانتفضت ... في قبضة الصلب للتفجير أوتار
فغاصت أحذيةُ الأحرار في دمهم ... وسالَ من شحمهم في الأرض
واستيقظَ الرقصُ في أقدامنا فإذا ... في كلِّ حنجرةٍ لحنٌ وقيثار
فانظر فبغداد غرقى في مباهجها ... في كل نافذة ضحك وأزهار
فارفع جبينك نحو الشمس مبتسما ... فاليومَ في كلِّ بيتٍ منك أنوار

هكذا نجد أن قصائد هذا الديوان تلتقي عند نقطة أسلوبية واحدة هي التخلص من الزمن الماضي وما فيه ، والإحتفال بالحاضر البهيج ، والتطلّع إلى المستقبل الزاهر، فيستعمل لذلك الأفعال الماضية ، أو التي تدل على الماضي كنفي المضارع مثلا .

أمّا خطاب التفاؤل والتحدي فيتجلى واضحاً في ديوان (هلاهل نحو الشمس) الذي خصّ به مردان ثورة تموز وفيه تظهر صورة البطل التي وجدها في الزعيم عبد الكريم قاسم (١٩١٤- ١٩٦٣) فقد بدأ الديوان بمقدمة نثرية تمجد هذا الرجل ، وبعده جاءت القصائد التي لا تخلو من ذكر اسمه نصّاً أو تلميحاً ، بل جاءت أغلب عناوين القصائد متوّجَةً باسمه ، مقرونةً ببعض التفصيلات التي ترصد شيئاً من صفاته وأحواله ، أذكر منها : عبد الكريم ودهليز البكاء ، الحب وعبد الكريم ، ابتسامة عبد الكريم ، كريم[٥٦] ولحظة الإنفجار، عبد الكريم والهلال ، عبد الكريم والمؤامرات ، عبد الكريم يبني الجنّة ، كريم العملاق الأسمر ، عبد الكريم والحرية ، العراق الجديد وعبد الكريم ، قلمي ولسان الزعيم ..

أمّا المجال الثاني الذي نلمس فيه تحوّلاً لخطاب حسين مردان الشعري فهو المرأة وإن جاء بدرجة أقل ، وغير متخلص من آثار الخطاب السابق ، فإذا كان الشاعر لم يعرف المرأة إلّا في مواخير البغاء ، ولم يوردْها إلّا في باب الرذيلة فإن موقفه منها قد تغير إذ لم يَعُدْ يذكرها بكثرة واهتمام كما كان يصنع ، فهو لم يظفر بالمرأة التي يريد [٥٧]، وإن عرف نوعاً جديداً من النساء كان يطمح إلى معرفته ، يمكن أن نجد له أنموذجا في " نوال "[٥٨] فهي ليست رمزاً للشهوة الشريرة ، أو جامحة نحو الرذيلة ، وإنّما تحوّلت جزئياً إلى رفيقة يريدها أن تقف إلى جانبه ، ربما على طريقة الشعراء المناضلين في زمانه :

صوتُك يا نَوال
صوتك يا سَمينة الشّفاه
لا يَزال
على فَمي
أشربه فيَرسُم الخَيال
لي خدَّكِ الأبيض
كالثلج على الجبال
صوتك يا وشيعة الحرير[٥٩]
يا نديّة الذراع
يا نوال
بلابل تنشد في الليل
على التلال
أغنية تصور الفضة
والعطور للرجال

او يستعمل الخيال فكأن شعوره العميق باستحالة لوصول الى المراة الحقيقية قد جعله يعوض عنها بالخيال كقوله [٦٠]:

وعدتُأستفيق
من هذه المرأة ! من تكون
وطفت فوق خدها الانيق
يا حرير
وعندما دخلتُ في العيون
حيث الندى والكحل والشموع
رأيت حقلَي نرجس يسيل من فوقهما المطر
وألف صبح أشقريشحن بالشرر

ولكن الحقيقة تتبخر امام قوة حضور الخيال اذ لم تكن المرأة الا حلما سرعان ما اختفى في نهاية القصيدة :

وعدتُ أستفيق
فلم أجد قربي سوى السؤال
من هذه المرأة ! من تكون
ويختفي الخيال

على أنّنا يجب أن نشير إلى إنّ هذا الخطاب ، وبرغم ما يبدو عليه من تحوّل فإنه لم يغادر مرتكزاته الأساسية ، فالمرأة ما زالت محتفظة ببعض سماتها الظاهرية المعروفة لديه ، والتفاؤل المفرط لا يخلو من نبرة خفيّة في التوجّس والحذر ، وهذه النبرة التي إحتفظ بها الخطاب كانت مفتاحا لعودة حسين مردان إلى النقمة واليأس بعد إسقاط الثورة ومقتل زعيمها ، ولكنه لم يعد إلى ما كان عليه من تحدٍّ وقوة ، وإنما شمله نوع من الذبول جعل نبرته هادئة ، ولكنّها يائسة أيضا .

الملخص :

ينطلق هذا البحث من فرضية مفادها إنَّأدب حسين مردان أدب إبداعي متنوع أكبر ممّا عرف به وشاع عنه في أذهان الناس ، وفي دراسات الدارسين وإنْ كانت

قليلة ، فهو ليس شاعر الجنس حسب ، لذا توجهت هذه الدراسة لفحص مختلف المجالات التي كان لشعره أثر فيها ،أو كان لها اثر في شعره ، فوجدنا أنّ حسين مردان كان يشعر شعوراً قوياً بالموت ، وبالجوع ، ويواجه العالم والوجود ، ويهتم بالقضايا الكبرى التي تهم وطنه وشعبه .

كان المنطلق في كل ذلك إمتلاك حسين مردان لذات متضخمة تستشعر في نفسها القوة والعظمة إزاء عالم تافه ، مضطرب الموازين ، لا يستطيع أن يلبّي لها أدنى متطلباتها كما لا يستطيع أن يلبي أبسط مقومات الحياة للأغلبية الساحقة من الناس في العراق في ظل الهيمنة والتسلط الإستعماري والإقطاعي ، لذلك نجد حسين مردان يفتح أبواب الأمل والتفاؤل أمام ذاته ، وأمام الناس جميعاً حينما تحدث ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فيتغير نمط خطابه الشعري ويكتسي نغمة جديدة هي نغمة الفرح والتفاؤل ، ولكن إلى حين .

Abstract

This researches starts from a hypothesis says that Merdan's literature is more various than people think, and researchers too. He is not poet of sex only! So that this study tried to explore different factors that effected and affected by Merdan's poetry. I found that Merdan had strong feelings about death, hunger, and being against the world. He cared about the big issues of his country and people.
The logic behind all of that is Merdan had a "swelled ego" that feels powerful and great against pity world, unbalanced, and can't give people essentials of their lives.
So after 1958 revolution we find his poetry had some ddegree of happiness, and hope, but it didn't last!

هوامش البحث ومصادره

١- ظ : المحسن ، فاطمة ، تمثّلات النهضة في ثقافة العراق الحديث ، منشورات دار الجمل ، بيروت – بغداد ، ط١ ، ٢٠١٠ ، ص ٩ .

٢ – غارودي ، روجيه ، البنيوية فلسفة موت الانسان ، ترجمة : جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٩ ، ص ١٤ .

٣- الكومي ، د محمد شبل ، الوجودية والحرية بين الفلسفة والأدب ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٠ ، ص ١٦٤ .

٤- إبراهيم ، زكريا ، مشكلة الإنسان ، مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ص ٥٦ ، ١٤١ .-

٥ - إبراهيم ، زكريا :١٨٢ ،

٦- حيمر ، د عبد السلام ، في سوسيولوجيا الخطاب من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت ، ط١ ٢٠٠٨ ، ص ٢٧٨ .

٧- كاظم ، علاء جواد ، الفرد والمصير بحث في الأنثروبولوجيا الثقافية ، دار التنوير ، بيروت ، ٢٠١١ ، ص ١٧٦ .

٨ - قنصوه ، د صلاح ، الموضوعية في العلوم الإنسانية ، عرض نقدي لمناهج البحث ، دار التنوير للطباعة ، بيروت , ٢٠٠٧ ، ص ٢٤٧ . -

٩ - إبراهيم ، زكريا : ص ١٠ .-

١٠- العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، الأعمال النثرية الكاملة لحسين مردان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ٢ /٨ وهو من مقالة بعنوان حسين مردان كتبها عام ١٩٥٠.

١١ مردان ، حسين ، من يفرك الصدأ ، أعدّه للنشر وقدم له : د . علي جواد الطاهر، منشرات دار الجمل ، بيروت – بغداد ، ط١ ، ٢٠١٠ ، ص ٣٦٠ .-وانظر مقالته : مشروع مذكرات : من ايام الطفولة في ص ٣٥٩- ٣٦٢ .

١٢- العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، الاعمال النثرية ، ص ٨١ .

١٣- العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، الاعمال النثرية ، ص ٨١ .

١٤ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، الاعمال النثرية ، ص٨٢ .

- ١٥ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، الاعمال النثرية ، ص١٦٥ .

١٦ - ظ : العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، الأعمال النثرية ، ص ١٨٨- ١٩٠ اذ كتب مقالة عن السادية والمازوشية وكان يبدو لديه إلمام بها.

١٧ - كان من شدة معاناة حسين مردان من الفقر والتشرد أنه يتسلل من بين زملائه إلى أقرب محل ليأخذ صمونة سمراء مع كأس من الشربت هما وجبته الغذائية الوحيدة في اليوم ، أما مشكلة النوم فقد وجد لها حلا بالمشي ليلا في شوارع بغداد ، أو إفتراش نبات الارض في

الحدائق العامة ، أو التسلل إلى أقرب بستان يأخذ فيه غفوة قصيرة ليغادر سريعا..
للتفصيل انظر : مردان ، جمال مصطفى ، شعراء من العراق ، مطبعة العاني ن بغداد ، ١٩٨٧ .

١٨- مردان ، حسين ، من يفرك الصدأ ، ص٣٦٧ ، واظر : مردان ، جمال مصطفى ، ص ٨٢ .

١٩ - المعروف أن حسين مردان ولد في سنة ١٩٢٧ في مدينة الهندية على الفرات وهي تابعة الآن إلى محافظة كربلاء لكنه عاش طفولته في محافظة ديالى قرب الشمال العراقي في قرية جديدة الشط – هي الآن ناحية – التي ظل يحن اليها في كبره وله مقالة أو أكثر في هذا المعنى .

٢٠- العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الاعمال الشعرية الكاملة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٩ ص ١١ . ولابد من الالتفات هنا الى التناقض في تصريح مردان بين حب نفسه وكرهه لها .

٢١ - ظة : الجزائري ، محمد ، ويكون التجاوز دراسات نقدية معاصرة في الشعر العراقي الحديث ، وزارة الاعلام ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٤ حيث وصف حسين مردان بأنه شاعر وجودي النزعة ، على أن حسين مردان نفسه قد كتب مقالة بعنوان : المعنى الحقيقي للفلسفة الوجودية ، بيّن فيها أن الوجودية فلسفة ذات نزعة إنسانية . ظ : العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، الاعمال النثرية ، ص ١٤٩ .

- ٢٢انظر : مردان ، حسين ، من يفرك الصدأ ، ص ٢٢٥ -٢٥٩ الدكتورعلي جواد الطاهرمدخل عن مسيرة مردان الشعرية

٢٣ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ١١ .

٢٤ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص٢١ .

٢٥ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ٢٧ .

٢٦ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٨٠ .

٢٧ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص٨١ .

٢٨ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٣٠ .

٢٩ - لذا خصه بديوان سماه (العالم تنور) ظ : العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ٣٣٩ – ٣٥٢ .

٣٠ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية :ص ٣٤٨ .

٣١ - العزاوي : عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٢٠١ .
٣٢ - يكتب مقالة مؤرخة في ١٦ حزيران ١٩٥٧ بعنوان : الجنس لم يعد مشكلة " فهل يعني هذا أنه قد تخلص من هذه المشكلة بتقدمه في العمر؟
٣٣ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٢٢٠ .
٣٤ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص٢٣١ .
٣٥ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمالالشعرية : ص ٢١٤ .
٣٦ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٢٣٥ .
٣٧ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٣٥٣- ٣٨٣ .
٣٨ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٣٠٥- ٣٣٨ .
٣٩ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ١١٣ .
٤٠- كان احساسه بالموت قويا حتى انه مات في وقت توقعه ، انظر : مردان ، حسين : من يفرك الصدأ ، ص ٣٧٦ ، والمقالة لصديقه السيد عبد المنعم النجار
٤١ - مردان ، جمال مصطفى :ص ٧٨ .
٤٢ - مردان ، جمال مصطفى : ص ٧٩ .
٤٣ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال النثرية : ص ١٦٤ .
٤٤ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال النثرية : ص ١٩٤
٤٥ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٣١
٤٦ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٤٩ .
٤٧ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الاعمال الشعرية : ص ٤٧ .
٤٨ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٣١ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٠ ، وغيرها .
٤٩ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ٥٨ .
٥٠-مردان ، حسين ، من يفرك الصدأ ، ص ٢٥٥ ، والقول لمعد الكتاب الدكتور علي جواد الطاهر.
٥١ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية: ص ٣٦ .
٥٢ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٧٨ .
٥٣ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٣٧٣ .

٥٤ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ٨٣ص – ١١٨ .
٥٥ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص٣٠٥- ٣٣٨ .
٥٦- كان العراقيون يستعملون هذا الاسم (كريم) للتحبيب ، وللدلالة مباشرة على كرم الزعيم الذي جاد عليهم ببعض خيرات بلادهم التي حرموا منها طويلا إذ كانت نهبا بيد الأجنبي ومن أعانه .
٥٧- ظ: مردان ، حسين ، من يفرك الصدأ ، ص ٣٨ -٥٣ ، والقول للدكتور الطاهر
٥٨ - العزاوي ، عادل كتاب نصيف ، حسين مردان الأعمال الشعرية : ص ٣٠٧ .
٥٩ - عرف حسين مردان باستعماله الألفاظ الشعبية في شعره وأشتهر عنه بعضها مثل : شيف البرتقال ، نفنوف ، الجمّار ، اللّيط ، الحلقوم ﴿من الحلويات الشعبية﴾، تشلح ، تبوس ... ظ : الجزائري ، محمد : ص ٥٠٣ .
٦٠ مردان ، حسين ، من يفرك الصدأ : ص ٣٣٦ .-